

رهانات المغرب في عصر الكوكبة الفرص والتحديات

د. محمد غربي

أستاذ القانون العام بكلية الحقوق بطنجة

جامعة عبد المالك السعدي /المغرب

مقدمة

يعيش المغرب اليوم في عصر الكوكبة الزاحفة التي لا ترحم المتخاذلين تحديات خارجية وداخلية كبرى، ستحدد مصيرنا جميعا في المنظورين المتوسط والبعيد. فبحكم موقعه الجغرافي والذي يجب علينا التعويل عليه كثيرا أو الانشغال به أكثر من اللازم كما حصل في الماضي القريب عصر الحرب الباردة، فنحن نقع ضمن مجموعة من الدوائر منها المتوسطية، الإفريقية، وكذا الإسلامية والعربية، وضمن الدائرة الأخيرة، نعلم جميعا أن منطقتنا العربية تمر في حال من الارتباط لا تخفى على أحد (خاصة بعد زلزة الثلاثاء الأبيض الأمريكي المؤرخ بـ 11 شتنبر 2001)¹. فالأحداث العميقة الأثر

¹ راجع في هذا استجواب خاص لمدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية محمد البرادعي مع جريدة الحياة اللندنية على الشبكة العنكبوتية لجريدة الحياة اللندنية بتاريخ 20 نونبر 2008.

والتحولات المتزامنة وانتقال القوة الأعظم من سند للاستقرار إلى داعية للتغيير²، ناهيك عن جروح أخرى مفتوحة هنا وهناك من الصومال، غزة، النجف ودارفور.. وهلم جرا. وكلها أحداث تحدث قلقلًا في النفوس، وتحفز في الأذهان، وارتبكا في القرار.

من هنا، فنحن في حاجة إلى وضوح الرؤية، اعتبارًا منا بجذرية التحولات الضارية بنا، حتى لا نبقي عند القشرة أو الهامش، وذلك من خلال ملاحظة ما جرى لنا في العقد الأخير من نهاية قرن واستهلال الآخر، وانتهاء ألفية وبداية أخرى، وكذا على امتداد العقد الأول من انطلاق القرن الحادي والعشرين، حتى لا نبقي كذاك المتلقي للنصح الدبلوماسي، أو الضغط السياسي وخاصة منه الخارجي³.

ويقينا، خاصة في عصر الكوكبة الداهمة، أننا على طول الموقع الجيو-سياسي الذي قدر لنا أن نكون فيه، نشكل هامشًا مقصيا، أو منطقة معزولة، أو مساحة من الفقر والعدم. فماذا يراد منا إذن؟

الملاحظ اليوم أن مختلف تجليات ثورة المعلومات المتسارعة تساهم في تقليص مفهوم السيادة والسيطرة على الحدود⁴، كما أن نظام السوق، يقلص تدريجيا تحكم الدولة بالاقتصاد وبالتالي بالمجتمع. ويؤدي الانتقال السريع للرساميل والأفكار والمعلومات الدور نفسه، حتى باتت السيادة في عيون كثيرين لا تعني السيطرة على مساحة من

² د. غسان سلامة، معالم عقد اجتماعي جديد بين الدولة والمجتمع، مجلة وجهة نظر، العدد 28، ربيع 2006، ص: 3_4.

³ د. سمير أمين، الفجوة بين الأغنياء والفقراء، مجلة وجهة نظر، العدد 28، ربيع 2006، ص: 53_54.

⁴ محمد غربي، فجوة المعرفة بين الشمال في عصر الكوكبة: دراسة نموذجية عن العالم العربي، مجلة المغرب الدبلوماسي، ماي 2007، ص: 31.

الأرض بمقدار ما تعني الحق في مقعد على المائدة المفتوحة في غير مكان للتفاوض حول القضايا العالمية (حقوق الإنسان، البيئة، الاحتباس الحراري وغيرها).

يضاف إلى هذا التحول المفهومي، تحديات أخرى داخلية وخارجية منها الإقليمية ومنها العالمية، نسطر من بينها على سبيل الاستئناس لا الحصر: (موجات الهجرة السرية الداخلية والدولية الوافدة علينا من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، بعض من العالم العربي "العراق بعد 20 مارس 2003"، جنوب آسيا من (الهند، باكستان والبنغلاديش) والمخدرات، وهي تحديات ثلاث قد تصنف من طرف الغرب وفي قاموسه السياسي والاستراتيجي في خانة الإرهاب كما وقع للعراق مع خرافة أسلحة الدمار الشامل، وعلاقة نظام البعث بالقاعدة⁵. كل هذا وغيره، يقضي باعتبار الإرهاب ليس وسيلة لجأت إليها جماعات كثيرة متنوعة عبر التاريخ بل نوع من الخصم القائم في ذاته، وهنا نحن مطالبون بتحديد مفهوم جديد للإرهاب، حتى لا ننساق وراء موقف حدد سلفا للظاهرة نجر إليها جرا، تحت شعار: "من ليس ضده فهو بالضرورة متواطئ معه"، كما هو الشعار الأمريكي الخاص والذي طرحه الرئيس الأمريكي الأسبق جورج دويلي بوش (خريف 2001)، والغربي لكثير من الدول الأوروبية التي تنحو منحاه. ليس بيننا أعتقد ولا أجزم من يؤيد الإرهاب طبعاً، ولكن بوجدنا أن نتوافق مسبقاً على تحديد الإرهابي. غير أننا في اشتراكنا في تحديد الإرهاب دونه عقبات أهمها استيلاء القطب الأعظم أي الولايات المتحدة الأمريكية على حق وضع القواميس والمعاجم.

في خضم كل هاته التحولات الزلزالية خاصة لما بعد الثلاثاء الأبيض الأمريكي (11 ستمبر 2001)، جاء من يدعونا إلى الإسراع بإصلاح نواتنا بعد أن تأخرنا كثيراً عن

⁵ محمد غربي، في قضايا الهجرة الدولية، مجلة شؤون استراتيجية، العدد 2، دجنبر 2008، ص: 16_17_18.

ذلك، وربما يشعر عمومنا بنوع من الحرج بل والخجل إزاء هذه الدعوات المتكررة، فهل كنا على أتم الاستعداد لقبول مثل هاته الدعوات الخارجية وفي مقدمتها الضغوط الغربية وعلى رأسها الأمريكية، لنشرع في إصلاح كثير من الحقول منها حق الأسرة، والحقل الديني، وبعض من الحقل السياسي الذي اقتصر على المشهد الحزبي ومدونة الانتخابات من غير أن يمس لحد الآن قضايا جوهرية داخل نظامنا السياسي، إذا أردنا فعلا الحديث عن حقل سياسي جديد، أمكن معه ال حديث علميا وسياسيا عن انتقال ديمقراطي بمواصفات ومعايير دولية على شاكلة بعض الأنظمة السياسية في أوروبا الغربية وأمريكا اللاتينية، أم أننا سنظل نراوح مكاننا للتغني باننتقال ديمقراطي على الطريقة المغربية، يحترم الخصوصية، ولا يتجاوز حدود السقف المحدد له سلفا.

تحديات السياسة الخارجية:

الملاحظ أن السياسة الخارجية المغربية اجتازت منذ نشأتها العديد من المراحل وتجاوزت العديد من الصعاب والعقبات وتميزت كل مرحلة من هذه المراحل بطابع خاص، ميزها عن غيرها من المراحل الأخرى، من حيث نمط التفاعلات أو نوعية العلاقات المعتمدة والمؤثرة، والتي تتجاذبها في عمومها تفاعلات إما تعاونية أو تنافسية⁶. السؤال المطروح اليوم وبكل إلحاح، والذي نطرحه على أنفسنا، هل المعرفة السياسية المغربية في عصر الكوكبة قادرة على استيعاب وفهم كل هذه التحديات خاصة على مستوى أدائنا الدبلوماسي؟

Dr. Rachid El Houdaoui, « La politique étrangère sous le règne de _⁶ Hassan II », Edition l'Harmattan, Paris, 2003, pp : 15_24.

هذا سيجرنا للحديث ضمن نقطة ثانية من مقالاتنا هاته عن سياستنا الخارجية، والتي سنبدوها بطرح بعض من التساؤلات التي تبدو لنا اليوم جوهرية.

ما هي محددات وأهداف الدبلوماسية المغربية، ما هي المجالات التي توليها هذه السياسة اهتماما ما؟ ما هي نوعية الإكراهات الداخلية والخارجية المتحكمة في صناعة القرار السياسي على مستوى السياسة الخارجية؟⁷ ثم ما مدى إمكانية الحديث عن الاستمرارية والتغيير في حجم ونوعية الرهانات الجيو-سياسية للدبلوماسية المغربية؟⁸ هل مازال من حقنا في عصر الكوكبة أن نتحدث عن علاقات متميز مع الاتحاد الأوروبي⁹ (ضمنه العلاقات الفرنسية _ المغربية

⁷ من تصريحات الراحل الملك الحسن الثاني، قوله: "... يجب أن لا يقف هذا في طريق الدولة كالفناء والقدر، وعلى الدولة أن تبحث عن الأكسجين الذي ينقصنا ولو على مدى 3000 كلم.. نحن في خصومة مع الجزائر حول قضية الصحراء، وموريتانا أخذت موقفا معاديا للمغرب، تحيزت فيه، فلم يبق لنا إلا البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي"، جريدة الشرق الأوسط، 6 يناير 1985.

⁸ تعتبر التغييرات الجيو-سياسية التي عرفها المغرب ويعرفها العالم من بين أهم المحددات التي تصنع المكانة الاستراتيجية لدولة من الدول، كما أنها تعتبر من بين المقومات الأساسية التي تساهم في وضع الدولة داخل سياقها الجيو-سياسي، الذي تتفاعل من خلاله مع مختلف الأطراف.

⁹ يعد الاتحاد الأوروبي أحد أكر القوى الإقليمية أهمية بالنسبة للمغرب، كما أنه يعد الشريك التجاري الأهم، ومنتفسا اقتصاديا وسياسيا، رغم التدني الحاد في مدى أهمية أوربا ككيان جغرافي _ استراتيجي يحتل صدارة الأقاليم الدولية، إلا أن التطور الداخلي للقارة الأوروبية نفسها هو الذي نجح في الحفاظ على قدر كبير من أهميتها الذاتية على المسرح الدولي، بفعل تنامي قوتها الاقتصادية والبشرية بشكل تنامي قوتها الاقتصادية والبشرية بشكل يجعل منها قوة عالمية ذات وزن ثقيل، روبرت سوتيرا، "أوربا ولعبة السلم والتعبان مع أوربا"، مجلة الثقافة العالمية، العدد: 124، السنة 23، ماي _ يونيو 2004، ص: 112.

والعلاقات المغربية الإسبانية)¹⁰، أم يجب الذهاب بعيدا للبحث عن أقطاب جديدة خاصة في قارة القرن الحادي والعشرين أي قارة آسيا من خلال نماذج اليابان، الصين، الهند، وجبلي النمرور و الأشبال الآسيوية على امتداد شرق وجنوب شرق آسيا¹¹.

يلاحظ في السنوات الأخيرة توجه جديد للدبلوماسية المغربية خاص بمنطقة أمريكا الجنوبية (البرازيل، الأرجنتين، البيرو) مقرونا بالوزن الذي أصبحت ترقى إليه تطلعات شعوب وحكومات المنطقة الساعية إلى تشكيل قطب سياسي يأخذ برأيه في المنتديات الدولية، ما جعل المنطقة تسير لتصبح قوة حقيقية في العقود المقبلة إذا ما قدر للاندماج الاقتصادي المنشود الذي تسعى إليه حكومات وشعوب المنطقة أن يستمر¹².

10- محمد الخليل العلوي، الرهانات الجيو-سياسية للدبلوماسية المغربية، دبلوم الدراسات العليا، كلية الحقوق بسلا، جامعة محمد الخامس السويسي، 2006-2007، ص: 113-116.

11- إن بلورة رسم الاستراتيجية الدبلوماسية المغربية في علاقتها مع التوجهات الجيو-سياسية بجديدها وقديمها، أضحت تحتم ضرورة الانخراط الشامل والعميق في مختلف التجارب وتوسيع قاعدة الحضور والفعالية، وعدم الاقتصار على فضاءات جغرافية باتت تقليدية ومتجاوزة، ولا تكفي لوحدها وباتت تفرض التوجه شرقا باتجاه القارة الآسيوية الناهضة وغربا باتجاه أمريكا اللاتينية باعتبارها عوالم المستقبل وللوزن السياسي الذي بدأت ترسمه دولها لنفسها.

12- وقعت كل من الأرجنتين، البرازيل، الدراجواي والأوروغواي في مارس 1999 اتفاقية أسنيون المؤسسة للمركسور على مساحة 12 مليون كلم مربع، وبحجم سكاني يقدر بـ 200 مليون نسمة، مما يكسبه أهمية كبرى بين القوى الاقتصادية والسكانية ويجعل منه رابع أكبر التكتلات الاقتصادية العالمية من حيث المساحة والساكن بعد كل من الاتحاد الأوروبي، الناقتا والآسيان.

رهانات المغرب:

درجت أغلب الدراسات الأكاديمية المهمة بالشأن الدبلوماسي المغربي في السنوات الأخيرة على التأكيد على ضرورة تفعيل انشغال الدبلوماسية المغربية وإيلاء المزيد من الاهتمام بمناطق جغرافية جديدة، غير التقليدية منها باعتبارها متفصلا استراتيجيا لابد منه وقاعدة خلفية لتعزيز المواقف ومواجهة التحديات الجديدة التي تطرحها الكوكبة الزاحفة، وأمام هذا التحدي تم الحرص على تفعيل العلاقات الدبلوماسية مع قوى جديدة في القارتين الآسيوية والأمريكية.

وأمام التحديات التي يفرضها العامل الجيو-سياسي على المصالح الدبلوماسية المغربية فإنه يمكن أن نقسم المصالح الجيو-سياسية المغربية إلى أربع دوائر جغرافية كبرى تعمل على رأس التفاعلات، وتحدد فيها مختلف الرهانات، فنجد على رأس الدوائر الجغرافية، الدائرة الأوربية وما يتبعها من تجمع أوروبي - الاتحاد الأوربي - مرورا بحلف شمال الأطلسي وأوربا الشرقية، ثم تليها مباشرة الدائرة الأمريكية بتفاعلاتها السياسية والتي ستتوطد بإضافة العامل الاقتصادي بعد توقيع اتفاقية التبادل الحر بين الولايات المتحدة الأمريكية والمغرب (2 مارس 2004)، ثم في مرتبة ثالثة نجد الدائرة الآسيوية بما تمثله من مصالح جيو-اقتصادية - دشنها كل من جلالة الملك محمد

السادس والوزير الأول السابق عبد الرحمن يوسفى - بفعل انعدام عوامل المواجهة والصراع السياسى بين المغرب ودول القارة الآسيوية¹³. ورابعا وأخيرا الدائرتين العربية والإسلامية وضمنها تقع الدائرة الإفريقية.

خاتمة:

إننا فى حاجة إلى إصلاح حقيقى لأنه سنة الحياة، ولأن مجتمعنا ينتظره وبصر عليه بمقدار إصراره على تحقيق المطالب الوطنية، شريطة أن لا يكون أى إصلاح ق مسايرة للقوى وانقاء شره، حتى لا يظل من يمارس الشأن العام على المستوى الحكومى بين مطرقة الخارج وسندان مطالب المجتمع الداخلية. من هنا تبرز ضرورة الانقلاب على إصلاح مؤسساتنا وأنظمتنا وتشريعاتنا كشكل من أشكال تثبيت الذات قبل التواصل مع الآخر، وهذا تحد آخر وجديد على علم السياسة المغربى أن يركبه، وهذا لن يتأتى إلا عبر قراءة متجددة وعميقة للمعرفة السياسية الوطنية تشارك فيها جميع فعاليات المجتمع من غير إقصاء أو تهميش، فهل لهذا أن يتحقق، أم هيهات هيهات؟

1313- يرى الكثير من المحللين أن المغرب بفضل موقعه الجغرافى يجد نفسه محكوما بمنظومتين إقليميتين ينبغى أن يتعامل معهما، إما بواسطة التعاون والحوار (التوجه الأورو-متوسطى)، أو بواسطة العداء والتنافس (التوجه المغاربى).